عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون
www.almadasupplements.com
"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة
رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (5705) السنة الحادية والعشرون
الخميس (11) تموز 2024

علي الوردي

في ذكرى رحيله

علي الوردي في العراق وما بعد

د. لاهاي عبد الحسين

حظي عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي مؤسس علم الاجتماع، والرائد فيه بشهرة وشعبية واسعة في العراق ما بين أكثرية محبة ومعجبة، وأقلية ناقدة ومنتقدة، ومتذمرة. وبقي يحظى بكل هذا الاهتمام سواء من قبل دور النشر التي طبعت وأعادت طبع أعماله أو جمهور القراء الواسع الذي صار يتناقل علمه وخبرته وآراؤه من جيل إلى آخر.

وقد تكون أعماله الأكثر قراءة من قبل جمهور العامة حتى بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً على رحيله عام ١٩٩٥ في بغداد عن عمر ناهز الـ ٨٢ عاماً. حتى نجيب على السؤال وما بعد علي الوردي لا بد من المرور على ما حققه الوردي.

اشتهر علي الوردي بأفكار تقع ضمن نظام فكري عام طوره يقوم على فكرة "ازدواج الشخصية، التناشز الاجتماعي وصراع الحضارة والبداوة"، على أساس قيمي ومعياري وأخلاقي. ولديه مفهومات أخرى يمكن أن تلتقط من أعماله منها: القوقعة البشرية، الشفاعة، الخطية... إلخ. يمكن القول إن علي الوردي هو أوكست كومت العراق من حيث أنه قدم علم الاجتماع للعراق منذ أن أعطى محاضرته العامة الأولى المعنونة "شخصية الفرد العراقي"، عام ١٩٥٠. وكان عمل تدريسياً في كلية الملكة عالية للبنات بعد عودته من جامعة تكساس – أوستون الأمريكية بعد حصوله على الدكتوراه في علم الاجتماع عن أطروحته المعنونة: تحليلات اجتماعية لنظرية ابن خلدون، دراسة في علم اجتماع المعرفة. كنت ترجمتها بتصرف بالتركيز على آراء الوردي واستنتاجاته، ونشرت عن طريق مؤسسة المدى عام ٢٠١٨. معروف أن كومت أول من صاغ تسمية "علم الاجتماع"، وقدمه كفرع مستقل من فروع المعرفة العلمية عن الفلسفة وعلم النفس والبيولوجيا والدراسات الدينية.

وهو تالكوت بارسونز العراق لدوره بتأسيس قسم علم الاجتماع في كلية الآداب، جامعة بغداد عام ١٩٥٤ بمعية د عبد الجليل الطاهر وفيما بعد التحق آخرون بهما. كان بارسونز أسس أول قسم لعلم الاجتماع كفرع مستقل من فروع المعرفة العلمية في العالم عام ١٩٢٤ بمعية بيتريم سوروكن في جامعة هارفارد الأمريكية. ثم قدم الوردي عملا اتسم بالشمولية من خلال دراسته المعنونة "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" (١٩٦٥). رصد الوردي في هذه الدراسة مختلف الجوانب في المجتمع العراقي داعياً إلى إصلاح ذات البين بين الحكومة والشعب بسبب التجارب القاسية التي مر بها في ظل الأنظمة الاستبدادية في التاريخ الحديث مع العثمانيين والانكليز ومن ثم الحكم الوطني الذي لم يستقر على حال بسبب الانقلابات العسكرية المتعاقبة. وهو بذلك قارب بارسونز مؤسس النظرية الوظيفية المعاصرة التي تميزت بالشمولية في محاولة لتقديم رؤية متكاملة للمجتمع البشري يمكن أن يبنى عليها وتطور بالدراسات المتعاقبة والنقد البناء.

وهو ماكس فيبر العراق بحكم اهتمامه بالمعنى والفهم. لا تقل أطروحته في كتاب "وعاظ السلاطين" (١٩٥٥) أهمية عن كتاب فيبر "Protestant Ethics الجزيرة Spirit of Capitalism"، "أخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، حيث (لقاء الدين والاقتصاد) فيما أخذ الوردي (الدين والدولة) معتبراً فترة حكم الرسول والخليفتين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب النموذج على رسالة الإسلام في النزاهة والورع والتقوى ثم أخذت الدولة بنظره منحى آخر تسبب في إحداث المشاكل والنزاعات. يحسب للوردي أن كتابه هذا صار مصدراً للإلهام سواء على صعيد الدعم والتعزيز أو النقد والتقريع.

وهو إيميل دوركهايم العراق بحكم اهتمامه بالمنهج العلمي وقواعده كما عبر عن ذلك في كتابه "مهزلة العقل البشري"، (١٩٥٦) وفيما بعد "منطق ابن خلدون" (١٩٦٢) وفيهما وجه نقداً شديداً للفلسفة بحكم ميلها إلى التجريد والنأي عن الواقع، داعياً إلى التحرر من المنهج الأرسطي الذي يقوم على فكرة المسلمات التي تقود إلى نتائج متوقعة. وضرب مثلاً في مفهوم "الثائر والخائن"، كقوله: كل من تمرد على النظام ثائر؛ فلان تمرد على النظام؛ إذن، فلان ثائر". بالمقابل يقول الخصم: كل من تمرد على النظام خائن؛ فلان تمرد على النظام؛ إذن، فلان خائن". لوقف هذا التداعي غير العلمي ويؤدي إلى نتائج متوقعة دعا الوردي إلى استخدام المنهج العلمي بالسؤال وتعقبه وذلك لتفادي المسلمات النظرية التي تفشل في رصد الحقيقة وتحليلها. وكان كتابه "خوارق اللاشعور" (١٩٥٢) بحث في الشخصية الإنسانية ومحاولة لاستخدام قوانين علم الفيزياء لتفسير حالات التخاطر والحدس والشعور كجزء من اهتمامه بالفلسفة الوضعية التي أطلقها كومت في مجال العلوم الاجتماعية على سبيل التفحص والتوثق. أعلن في هذا الكتاب نفسه عن التوقف لدراسة حالات اللاشعور علمياً بسبب شحة الدراسات العلمية وعدم التمكن من استخدام المتوفر منها لتجاوز الحالات الفردية وتفسير الظواهر الاجتماعية ذات المدى الأوسع كالنزاعات والحروب والتحولات السياسية والاجتماعية.

قدم في كتابه "أسطورة الأدب الرفيع" (١٩٥٧) نقداً حاداً للمواقف المحافظة للمشتغلين في مجال الأدب وانحيازهم للسلطة ومن يمثلها على حساب المواطن وحقوقه الأساسية. ناقش أطروحاتهم وتمسكهم بقواعد اللغة والأدب أكثر من تمسكهم برسالة الأدب ليكون سارية تتبعها الجموع لتحقيق التغير والنهوض السياسي والاجتماعي. يعتبر كتابه "الأحلام بين العلم والعقيدة"، (١٩٥٩) امتداد لكتابه "خوارق اللاشعور"، الذي أكد فيه على استخدام المنهج العلمي لشرح وتحليل ظواهر غيبية بطريقة غير غيبية كما الحال في الأحلام ورؤية الأولياء والأئمة مما جرى تفسير ظهورهم بطريقة تقليدية تبشر أو تنذر اعتماداً على ما ظهر في الحلم. اعتمد في هذا على مفهوم سيجموند فرويد عالم النفس المعروف ومؤسس مدرسة التحليل النفسي على مفهوم "الوعي الباطن"، مشيراً إلى إسهامة سلامة موسى الذي اقترح ترجمة المفهوم بـ"الوعي الكامن. أبدى الوردي موافقته على اقتراح موسى ولكنه اعترف بصعوبة شيوعه وانتشاره وما درج الكتّاب وقراء العربية عليه.

تفرغ علي الوردي فيما بعد لكتابه ذي الأجزاء أو المجلدات الستة مع ملحقين إضافيين والمعنون "لمحات من تاريخ العراق الحديث" حتى بداية السبعينيات. وفي هذا الكتاب نجد تقديماً للوردي لفرع جديد من فروع علم الاجتماع يطلق عليه "علم الاجتماع التاريخي"، الذي استهدف من خلاله قراءة التاريخ من وجهة نظر اجتماعية. بل ومضى في هذا الطريق مستخدماً الإطار النظري الذي طوره وحدثه مستفيداً وبانياً على ما أنجزه العلامة العربي ابن خلدون على صعيد الدولة والمجتمع.

استغرق علي الوردي في عمله عشرين عاماً ما بين الخمسينيات والستينيات وكان القاسم المشترك فيها اهتمامه بالشأن العراقي والمنهج العلمي والنزعة النقدية والنظرة المتطلعة إلى المستقبل. تطلع الوردي إلى المستقبل وأثنى على الديموقراطية كنظام سياسي ضامن لسلامة المجتمع شريطة أن يقبل الفرقاء والأطراف المشاركة فيها بقرار الناخبين واختياراتهم بعيداً عن الفساد المالي والإداري والتلاعب بنتائجها. اعتبر الوردي أن الانتخابات الديموقراطية الحرة والنزيهة المطرقة التي يستخدمها المجتمع للتغيير وإعادة البناء.

يمكن أن توجه انتقادات للدكتور الوردي بسبب

تضمينه أقسام من أعمال سابقة في كتب لاحقة ووقوعه في إشكالية التكرار. كما استخدم تعبيرات ساخرة كثيرة بعيداً عما يصطلح عليه بالكتابة المهنية. لم يهتم الوردي بالأسلوب المهني الحديث في الكتابة الأكاديمية ولكنه كان واضحاً على هذا الصعيد مؤكداً أنّه يتوجه للقارئ العام الذي يمثل بنظره الغاية والوسيلة. من جانب آخر، لا بد من الاعتراف بأنّ زملاءه أخذوا عنه ولم يعترفوا له كما في مفهوم "القوقعة البشرية" التي ظهرت في أعمال الوردي قبل أن يظهر كمفهوم رئيسي في أعمال الدكتور عبد الجليل الطاهر. وكذلك مفهوم "الإزدواجية"، التي سماها قيس النوري "ثنائية الريف والمدينة". كما أسيء فهم الوردي عندما ظن البعض أنّه مؤرخ وليس عالم اجتماع بسبب مشروعه "لمحات من تاريخ العراق الحديث". ولا تزال وجهات نظر كهذه تشيع في أوساط متعددة وبخاصة خارج ميدان علم الاجتماع. على سبيل المثال، أعلن قبل أيام عن مناقشة رسالة ماجستير في قسم التاريخ كلية الآداب جامعة البصرة حملت عنوان، "تاريخ العراق الحديث والمعاصر في كتابات علي الوردي". وهذا غير صحيح لأن علي الوردي لم يكتب تاريخاً للعراق، وإنما فسر تاريخ المجتمع العراقي من وجهة نظر اجتماعية سوسيولوجية. وقد أشاد الوردي بنوعية الدراسات العلمية التي نوقشت على مستوى منح شهادات الماجستير والدكتوراه في قسم التاريخ في كلية الآداب، جامعة بغداد لعلميتها ورصانتها التي أهلتها لتكون مصادر مهمة اعتمد عليها في دراساته.

اختلف معه زملاؤه الأكاديميون من أمثال عالم الأنثروبولوجيا العراقي الدكتور شاكر مصطفى سليم والدكتور قيس النوري والدكتور متعب السامرائي والدكتور حاتم الكعبي والدكتور معن عمر خليل وآخرين بسبب أسلوبه في الكتابة وعدم اهتمامه بالجوانب المهنية المتعارف عليها في الدوريات العربية. ولكن الوردي يقف متفرداً وربما زاد في عزلته الأكاديمية على الضد من الشعبية والإعجاب والمحبة التي حظي بها من قبل جمهور العامة سواء في العراق أو البلدان العربية ومنها المملكة العربية السعودية.

السؤال، هل ضمر علم الاجتماع بعد علي الوردي؟! بالتأكيد، لا. فقد أعلن عن إطلاق الدراسات العليا عام ١٩٧٢ لمنح شهادات الماجستير والتي عارضها الوردي وشاكر مصطفى سليم لاعتقادهما أنّ القسم غير مؤهل لمنح شهادات عليا من هذا النوع. ولهذا السبب اكتفى الوردي بالإشراف على رسالتي ماجستير وامتنع فيما بعد عن الإشراف. امتنع شاكر مصطفى سليم كذلك ولنفس السبب عن الإشراف، كلياً. استمرت الدراسات العليا في قسم الاجتماع كلية الآداب جامعة بغداد في التدفق حتى صدر منها ٣٩٠ رسالة حتى عام ٢٠٢٢ حسب دراسة غير منشورة قام بها الدكتور خالد حنتوش. وفقاً لهذه الدراسة افتتحت الدراسات العليا لمنح شهادة الدكتوراه عام ١٩٨٧ حتى بلغ عدد الأطروحات المجازة ٢١٨ حتى عام ٢٠٢٢. بلغ المجموع الكلي ٦٠٨ ما بين رسالة وأطروحة. بيد أنّ هذه الرسائل والأطروحات لم تتطور باتجاه معين وظلت بدرجة كبيرة تتبع ظل المدرسة الوظيفية المحافظة. وحظيت بغداد كمدينة بحصة الأسد في الدراسات الميدانية التي قام بها الطلبة بسبب الكلفة المرتفعة التي يمكن تكبدها خارج بغداد. وظهر أن هناك تفاوت على مستوى سياسة القبول لصالح الذكور على حساب الإناث. بالتأكيد لعب النظام السياسي دوراً مهماً في تقييد قسم علم الاجتماع بسبب غياب مفهوم "الحرية الأكاديمية" و"الحصانة الأكاديمية"، المطلوبة لحماية الباحث في سبر غور القضايا الاجتماعية ذات الطبيعة الجدالية والإشكالية. كما كان للموقف السياسي المتشكك من الوردي

أنْ حدّ من العمل على أفكاره وإخضاعها للتحليل والبحث العلمي لدحضها، أو تعزيزها تبعاً للنتيجة التي يمليها البحث العلمي. لم يحدث ذلك. ولعل هذا هو السبب الذي حال دون تأسيس مدرسة قائمة لعلم الاجتماع العراقي التي كان يمكن أن تكون ملهمة لنشوء مدارس رديفة في بلدان عربية أخرى.

ظهرت أعمال د فالح عبد الجبار الذي رأس مركز الدراسات العراقية في بيروت ووجه اهتمامه لعلم الاجتماع السياسي. من أهم كتبه كتاب "العمامة والأفندي" (٢٠٠٣) الذي اهتم في الإسلام السياسي الشيعي، وكتابه "الدولة وعودة اللوياثان الجديد"، "دولة الخلافة: التقدم إلى الماضي"، أعاد ترجمة كتاب "رأس المال" عن الألمانية إلى جانب أعمال أخرى. بالنسبة لي أخذت طريق الدوريات العربية ووضعت محاولة لتقديم فرع جديد هو علم اجتماع الأدب من خلال دراستي لعينة من الروايات العراقية والتي أعطيتها عنوان "من الأدب إلى العلم: دراسة في علم اجتماع القصة والرواية العراقية للفترة ١٩٢٠– ٢٠٢٠"، عن دار الشؤون الثقافية (٢٠٢١)، بغداد، وكتاب في "علم اجتماع الحياة العامة"، تضمن مقالاتي في الشأن السياسي والاجتماعي العام وصدر عن دار المدى العراقية عام ٢٠٢٢ كجزء من التقديم لفرع علم اجتماع الحياة العامة الذي اقترحه أولاً مايكل بيوراوي في خطابه الرئاسي إلى الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع تمييزاً له عن علم الاجتماع المهني بصيغته الكلاسيكية والشائعة.

لم يحظ علي الوردي ومن أعقبه بدعم مؤسسي، بل كنا مطالبين بالتركيز على المحاضرات فيما نقوم بالبحث العلمي وفق استعداداتنا الشخصية وإمكاناتنا. معروف أن البحث الاجتماعي والأنثروبولوجي يتطلب الكثير من المال ولهذا السبب مال علي الوردي إلى التاريخ لإعادة تفسيره من وجهة نظر اجتماعية وملت إلى الأدب لنفس السبب. اليوم، فإنّ أقسام علم الاجتماع تواجه تحديات كبيرة، إذ لا زالت الكثير من القضايا الاجتماعية طي الكتمان أو موضوعاً للبحث الكيفي. ويبدو لي أن الذكاء الاصطناعي يلقي بتبعة ثقيلة على علم الاجتماع في بلداننا العربية ما لم يتحرك التدريسيون للتحكم بطريقة استخدامه ومنع الانهيار الذي يهدد مستقبل العلم لدينا. ربما علينا أن نلاحظ أنه في الوقت الذي يعتبر به الغرب الذكاء الاصطناعي امتداد لطريقة take home exam or open book exam فإن طلبتنا يميلون إلى طريقة copy paste وهذا ما يتطلب تدخلاً جاداً ومسؤولاً للحيلولة دون المزيد من التدهور والارتفاع إلى مستوى التحدي الذي تفرضه ثورة التقنيات الحديثة في تناول مختلف القضايا الاجتماعية.

أفكار الوردي.. وردود رجال الدين!

رشيد الخيون

عندما نشرَ عالم الاجتماع العراقي عليّ الورديّ كتابه "خوارق اللاشّعور" (١٩٥٢)؛ ردّ عليه الفقيه مرتضى العسكريّ (ت: ٢٠٠٧) في "أخبار المساء" (رمضان ١٩٥٣)؛ وما إنّ أردفه بـ"وعاظ السّلاطين" (١٩٥٤)، حتّى جمع العسكريّ الرّدود، وأضاف إليها نقده للكتاب الأخير، صدر ببغداد (منشورات الإمام الكاظم ١٩٥٥)، بعنوان: "مع الدّكتور الورديّ في كتابه وعاظ السّلاطين"، مع أنّ متن الكتاب ركزَ على "خوارق اللاشّعور".

كان واضحاً، من الرّد، لم يكنِ العسكريّ رجلَ دين تقليديّ، وهو أحد أقطاب حزب الدّعوة الإسلاميّ (تأسس ١٩٥٩)، أراه قارئاً للفلسفة اليونانيّة وهاضماً لها، وبهذا يُعد من المثقفين الدّينيين، في مجمل كتبه "عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى"، و"خمسون ومائة صحابيّ مختلق" وغيرها.

اتفقنا معه أو اختلفنا، فلا بد من الاعتراف أنه صاحب باع ثقافيّ وفق عقيدته. لكن يبدو أنّ ما كتبه كان تعبيراً عن غضب المؤسسة من أفكار الورديّ، لأنها نالت من الفكر التّقليديّ المحافظ، المنسجم مع رجال الدّين.

لم تصدر فتوى تكفير ضد الوردي، ولم يتعرض لاعتداء، على الرّغم من كثرة الأتباع الذي ينفذون ولا يناقشون، وما سمعته من المعمار محمد مكية (ت: ٢٠١٥)، وما أثبته في مذكراته "خواطر السّنين"، أنّه زار المرجع الخوئي (ت: ١٩٩٢)، في السّتينيات، مع الورديّ، فأخذ الخوئيّ يحاوره في أفكاره، وتمنى تكرار الزّيارة. أقول هذا للتذكير بزمن آخر، ليس التّكفير والاغتيال عنوانه، إلا ما ندر، ولا عمائم متحكمة بالضمائر، وميليشيا تتوسلها الدّولة، لإطلاق المخطوفين من قبلها.

كتب العسكري: "إنّ الدّكتور الورديّ، وأساتذته، يحاولون هدم كلّ قديم من أخلاق وآداب، ونظم اجتماعيّة". لم ينتظر العسكريّ ويقول: "يحاولون هدم الدّين"؛ فهذا تكفير صريح. لكنّه أراد قول ذلك، فالأخلاق في عقيدته دينيّة أولاً. كذلك أتهم الوردي أنه طالبٌ للشّهرة وفق "خالف تعرف". بعدها ردّ الوردي التّهمة، واعتبرها باطلة، ففي تصوره: ليس كلّ من خالف عُرف واشتهر، إذا لم يكن صاحب علم (المطبعيّ، عليّ الوردي يدافع عن نفسه).

كانت الأخلاق والآداب، التي أتهم الوردي بهدمها، تخص الحجاب، والتّشدد ضد الانفتاح الاجتماعيّ، الذي اعتبره الورديّ سبباً جوهرياً في التّخلف، وإشاعة "الاغتصاب"، ودفع المجتمع إلى ثقافة النّفاق، فالأخلاق لا تقومها المواعظ والخُطب، إنما الحلول العمليّة، كازدهار التّعليم، والتّحول إلى الحضارة.

أقول: وهل أكثر من مجتمعاتنا تستمع للمواعظ والخُطب، وها هو الطّابع الدّينيّ سائداً، ثقافة وسُلطة، فما هي النّتائج التي حُصدت، ألم يكن هذا دليلاً على صحة ما قاله الورديّ قبل سبعين عاماً؟ كان الورديّ يتحدث من بنات أفكاره، غير المقدسة، أمّا صاحب الرّد، فبين صفحة وأخرى يُذكر الوردي بحديث وآية، وهذا ما قصده الورديّ بقوله: "كسب الجدل بأن تتجنبه" (الورديّ يدافع عن نفسه).

كان أكثر ردّ العسكري دفاعاً عن المنطق الأرسطي ومثالية أفلاطون؛ والسّببُ لأنّ هذا المنطق بمثابة المقدس، فالمسائل الفقهية تعتمد عليه في الوصول إلى النّتائج، المنطق الذي ثار عليه "السفسطائيون"، وكان الورديّ ناصراً لهم. كتب العسكري ثالباً السّفطائيين، ومريدهم الورديّ: أفكارهم "تجعل الحقّ باطلاً والباطل حقّاً"، وبالتّالي فالوردي في ذهن المؤسسة الدّينيّة: يستبدل الباطل بالحقّ. ذهب العسكري في رده أن وجود الانحراف الخلقيّ له تاريخ، ربطه بالعباسيين والأديرة، ضمن عدم وده، كغيره من أبناء المؤسسة الدّينيّة الشّيعيّة، للعباسيين.

طرح الورديّ في مؤلفاته كافة أفكار التّحرر، وأسلوبه مقبول لدى طبقات القراء كافة، بشهادة المحقق كوركيس عواد (ت: ١٩٩٢): "يكتب بأسلوب ميسر جذاب، مفهوم لدى مختلف صنوف القراء. ثم وهو العالم في الاجتماع يعرف كيف يُطعم كتبه في المطيبات والتّوابل" (نفسه). أقول: ممَن يخشى رجال الدّين إذا لم يخشوا الورديّ، الذي يصل للقراء كافة؟!

من مضمار الدرس والتعلم الى الاستاذية العلمية

عندما أصبح الدكتور علي الوردي أستاذا جامعيا

د.علي طاهر تركي

بدأت رحلة علي الوردي الشاقة في مضمار الدرس والتعلم مع نهاية الحرب العالمية الاولى، وهو ابن خمس سنوات، معتمراً عمامة خضراء دلالة نسبه الشريف الى البيت العلوي، حيث درس مبادئ القراءة والكتابة وشيء من الحساب، الى جانب حفظه للقرآن الكريم، في احدى (كتاتيب) الكاظمية في مسجد قرب دار أبيه..

استكمل بعد ذلك دراسته في احدى مدارس الكاظمية، على الرغم من نظرة الريبة والازدراء من المجتمع المتخلف ازاء المدارس الحديثة أو كما اطلقوا عليها يومئذ بـ"المكتب"، وهي نظرة من مخلفات العهد العثماني، تركت اثرها الفاعل في عزوف العديد من ابناء المدن عن ارسال اولادهم الى المدارس..

لم يستكمل علي الوردي دراسته في المرحلة الابتدائية، اذ اخرج من المدرسة في عام ١٩٢٧ وهو في الصف الاخير من دراسته، وزج به في دكان احد أقربائه، ليتعلم عنده، وعلى حد تعبيره، (فن العطارة) من بيع وشراء، لقاء أجر شهري قوامه خمس ربيات فقط، بيد ان هذا التغيير المفاجئ والطارئ في مساره التعليمي لم يرقه ولم ينسجم معه، اذ وجد نفسه غريباً في وسط (العطارة)، وما يتعلق بها من معاملات التسوق وتعاملات زبائنه.

فلا غرو اذ نجده مقتنصاً كل فرصة سانحة لولوج عالمه الخاص، حيث المطالعة وقراءة الكتب داخل دكان العطار، وهو أمر قوبل بالرفض والاستهجان من رب العمل، مشدداً على ضرورة الاهتمام بأصول المهنة من إغراء وجلب للزبائن، محذراً إياه في الوقت نفسه من مغبة التقاعس عن العمل، والتوجه، وعلى حد تعبيره، نحو "قراءة لا تغني ولا تسمن"، متوعداً أياه بالطرد من العمل إذا استمر في نهجه هذا.

ضاق ذرعاً به صاحب الدكان، فقرر الاستغناء عن خدماته، فتنفس الوردي الصعداء لحرية طال انتظارها لسنوات خمس. ناءت بأوزارها عليه الى حد وصفها بـ"أبشع فترة" في حياته، بل و"مرارة لا حد لها"، لاسيما انها وقعت وهو في خضم سني المراهقة وريعان الشباب، مما زاد من معاناته وتأثره في هذه المرحلة الحرجة من عمره معاناة اضافية اثرت في تكوينه الشخصي تأثيراً كبيراً، اكده وبصورة لا لبس فيها في احدى لقاءاته الصحفية اذ جاء فيها ما نصه:

" لقد أمضيت في مهنة العطارة نحو خمس سنوات، وكانت تلك أبشع فترة في حياتي ... وكنت في تلك الفترة اجتاز مرحلة المراهقة والبلوغ، وهي مرحلة ذات أهمية بالغة في نمو شخصية الانسان، ولعلني لا أغالي اذا قلت بأن شخصيتي نمت على أساس من المرارة لا حد لها ".

استمر على هذا المنوال بين القراءة والكتابة، حتى جاءت انعطافه تاريخية مهمة في حياته وذلك خريف عام ١٩٣١، تلك الانعطافة المتمثلة في عودته الى مقاعد الدراسة مرة اخرى، عندما علم يوماً بافتتاح مدرسة ابتدائية مسائية في الكاظمية، عندها قرر التسجيل فيها والانضمام الى فصولها الدراسية وملؤه حماسة وشغف بحب العلم، ترجمه الى تفوق في الدراسة، اهله الى استكمال دراسته الاولية في مرحلة المتوسطة، فانتقل للدراسة في "متوسطة الكرخ"، تاركاً دكانه ومهنة العطارة دونما رجعة، مستثمراً أرباحه فيها في الانفاق على دراسته التي عدها تطوراً "ذا أهمية كبيرة" في حياته.

شكلت مرحلة دراسته في المتوسطة والانتقال الى الكرخ، تغييراً كبيراً اثر في تكوينه الشخصي، ليس أقله الانتقال من زي (الملائية) الى البنطال والسترة والسدارة زي (الافندية)، انتقال حمل في طياته معنى ومعنى، فهو ليس تغيير ملابس فحسب كما عدها الوردي نفسه، بل تغيير رؤى وافكار، كانت تصطدم مع واقع متخلف، تمسك وسط حيوي من ناسه بكل ما هو قديم تقليدي رافض لكل مظهر من مظاهر التغيير والتجديد.

فلا مراء اذ نجد الوردي في ذهابه وايابه الى المدرسة، قد سلك مساراً عبر الازقة والطرقات الضيقة في الكاظمية، تجنباً لما كانت ترمقه بعض اعين العامة من نظرات امتعاض واستهجان لارتدائه زي الافندية غير المقبول في وسطها، بل ان البعض عدّ ارتداءه بيع (الدين بالدنيا)، ومفسدة للسلوك القويم وابتعاداً عن الاخلاق الحميدة.

لم تهن همته او تلن عريكته على الرغم من المعوقات والمعاناة الملاحقة لمسيرته الدراسية، أذ كانت تزيده اصراراً وعزماً، و لم يقنع طول سني دراسته في المرحلة المتوسطة دون الحصول على المرتبة الاولى بين اقرانه من التلاميذ، متوجاً هذا التفوق بإحرازه المرتبة الأولى على عموم العراق في الامتحانات العامة (البكلوريا) صيف عام ١٩٣٥، فكانت النتيجة مدعاة فخر وابتهاج استاذه المدرس، وهو ما اثر في دفع مدير المدرسة الى تقديم توصية الى وزارة المعارف (التربية)، لمنح الطالب المتفوق اعانة مالية شهرية تعينه على استكمال دراسته في المرحلة الاعدادية، فوافقت الوزارة على منحه ديناراً ونصف شهرياً، وهو امر لم يستمر طويلاً، اذ سرعان ما انقطعت عنه المنحة، وحولت الى طالب اخر بسبب المحسوبية والمنسوبية، التي طالما عانت منها البلاد والعباد معاناة كبيرة، فترك ذلك اثراً عميقاً في نفسه لازمه الى أواخر حياته.

وكان من بين قراءاته المهمة في هذه المرحلة قراءته لـ"مقدمة" ابن خلدون، فقد لفت انظاره جملة من القضايا المعالجة في المقدمة، كان منها تقسيم المجتمع الى (حضري) و (بدوي)، والتأكيد على السمات والخصائص المميزة لكل منهما، واثر تلك الخصائص في المجتمع والدولة وبالتالي في قيام وسقوط النظم السياسية.

تعين علي الوردي معلماً، إثر حصوله على شهادة الاعدادية، إلا ان هذا لم يكن نهاية المطاف في طموحه التعليمي، كان يتحين الفرص لاستكمال ما بدأ في مسيرة الاستزادة العلمية والتزود المعرفي، فجاء اعلان وزارة المعارف العراقية في عام ١٩٣٩ عن وجود بعثات دراسية الى "الجامعة الأمريكية في بيروت"، فرصة اغتنمها مقدماً اوراق الترشيح في الوزارة، وعند اعلان نتائج الترشيحات، كان من بين الفائزين باحدى مقاعدها المخصصة لدراسة "التجارة والاقتصاد

"، وهو ما لم يلق هوى في نفسه، بيد انه لم يجد بداً الا في القبول، خشية ان يفقد مقعد البعثة العلمية. استكمل دراسته الجامعية في عام ١٩٤٣ وبدرجة شرف، ليقفل عائداً الى بلاده، وقد تزود بمعارف جديدة، فتحت امامه افاق ثقافية وعلمية لم تكن مألوفة لديه في اساليبها المنهجية والتحليلية والتعليلية، آليات بحث ومنهج كان لها الاثر الكبير في نماء قدراته الذهنية وبالتالي تأجيج فضوله العلمي. نقلت وزارة المعارف خدماته الى " الإعدادية المركزية " مدرساً لدرس الاقتصاد، ومن ثم رشحته لتدريس مادة دراسية جديدة أضيفت على المنهج الدراسي في المدرسة نفسها، عنونت بـ" احوال العراق الاجتماعية "، اختصت موضوعاتها بدراسة الواقع الاجتماعي للبلاد، والعوامل المؤثرة فيه مع التعريج عند ابرز سمات المجتمع العراقي وخصائصه. اعترض علي الوردي على قرار وزارة المعارف رافضاً تدريس درس ليس ضمن تخصصه الدقيق، الا ان الوزارة اصرت مهددة اياه بنقل خدماته الى مدرسة اخرى في حال عدم الاستجابة الى مطالبها، وهو أمر اضطره الى الرضوخ لأوامرها والقبول بتدريس " احوال العراق الاجتماعية "، فانكب على القراءة والاستقصاء عنه، وجمع المادة المتخصصة فيه، لاسيما ان الدرس افتقد الى كتاب منهجي مقرر من الوزارة المذكورة، خلافاً لبرامجها الدراسية المقرة لمختلف الدروس، اذ كانت مطبوعة بصورة كتب للمراحل الدراسية الاولية كافة. سرعان ما تحول الوجل من درس مرفوض وتدريسه مفروض، الى شغف في البحث عن اسراره، وولع لسبر أغواره والوقوف عند خباياه، فأنشد إلى الدرس الجديد، وتفاعلت في بودقة بنائه المعرفي الأسس "النظرية" لعلم الاجتماع مع تجربته "العملية" المستمدة من واقع حياته اليومي، طرفي معادلة شكلت "مقدمة ابن خلدون " اساسها الأولي نظرياً ومشاهداته العينية واحتكاكاته المباشرة وغير المباشرة مع مختلف فئات مجتمعه اساسها العملي. نجح على ما يبدو علي الوردي بتدريساته لهذه المادة، مما حفز وزارة المعارف في ترشيحه عام ١٩٤٦ لبعثة دراسية امدها اربع سنوات الى الولايات المتحدة الامريكية، لاستكمال دراساته العليا في جامعة تكساس والتخصص في علم الاجتماع تحديداً، فاستجاب الى الترشيح مبتهجاً، وكأن الاقدار ابتسمت له على حد تعبير احد معاصريه، حزم امتعته وشد الرحال الى بلاد، فتحت امامه افاقاً معرفية وعلمية جديدة اولاً، والتعرف الى عادات وتقاليد مجتمع غربي غير مألوف لديه ثانياً، فشكلت هذه المرحلة من حياته انعطافة تاريخية اخرى ومهمة في مسيرته العلمية وسيرته الحياتية الشخصية علماً وفكراً. نال درجة الماجستير بتفوق عام ١٩٤٨، وقد ادرك خلال مرحلته الدراسية هذه، ان " علم الاجتماع " علم عملي – ميداني، لا يرتكز على النظريات فحسب، بل الى بعده الحيوي المتفاعل والمتناغم بصورة مباشرة مع المجتمع تكويناً وتركيباً وارهاصات وسلوكيات، فلا يمكن ان يكون " مومياء جامدة " حبيس الكتب حسب تعبيره. عمل علي الوردي في حقل التربية والتعليم زهاء الثلاثة عقود، كان منها ثلاث سنوات في التعليم الابتدائي خلال المدة (١٩٣٧-١٩٣٩)، فقد ابتدأت مهامه في التعليم من اصدار اول امر اداري في تعيينه كمعلم "بمدرسة الشطرة الابتدائية"في ١٦ كانون ثان عام ١٩٣٧ وحتى انتقاله الى مدرسة "الشالجية الابتدائية" في الاول من تشرين اول عام ١٩٣٨، ليحصل بعدها على اجازة دراسية لاستكمال دراسته الجامعية مدة اربع سنوات، ليعود فيلتحق بـ" الإعدادية المركزية " في ١٥ ايلول من عام ١٩٤٣، ثم انتقل بعد عام ونيف

الى "ثانوية التجارة" في الاول من كانون اول عام ١٩٤٤ ليدرّس فيها مادتي الاقتصاد وأحوال العراق الاجتماعية حتى الأول من تشرين أول عام ١٩٤٥، حيث قدم اجازة دراسية لاستكمال دراسته العليا في الولايات المتحدة الامريكية. شرع بعد ذلك التحضير لأطروحة الدكتوراه، متخذاً من ابن خلدون وآرائه في علم الاجتماع موضوعاً لدراسته، فقدم اطروحة عن موضوعه بعد عامين من المواظبة والجهد الكبيرين في البحث والدرس والتحليل لمؤلفات ابن خلدون، نالت اعجاب وتقدير اساتذته المناقشين والجامعة، فحصل على تقدير متميز عن اطروحته في عام ١٩٥٠، قررت بموجبه الجامعة ان تمنحه "دكتوراه فخرية " اضافية لما حصل عليه من درجة دكتوراه بصورة رسمية، ولم يقف التكريم عند هذا الحد، بل منحه حاكم ولاية تكساس وسام التفوق في الولاية، وهو وسام لا يمنح الا لمن قدم من الباحثين انجازاً علمياً مرموقاً، كما منحته الجامعة شهادة تقديرية ومذكرة معنونة الى وزارة المعارف العراقية يومئذ، اكدت فيها، على ما حصل عليه من "نتيجة مذهلة متفوقة "، بل ان اطروحته " تعادل ثلاث اطاريح متميزة "للدكتوراه في حقل تخصصه، ولم تكتف بذلك وحسب، اذ شددت على انها كانت " إضافة حقيقية " في علم الاجتماع.

عمل علي الوردي في حقل التربية والتعليم زهاء الثلاثة عقود، كان منها ثلاث سنوات في التعليم الابتدائي خلال المدة (١٩٣٧-١٩٣٩) وكما مبين في الجدول رقم (٢)، فقد ابتدأت مهامه في التعليم من اصدار اول امر اداري في تعيينه كمعلم "بمدرسة الشطرة الابتدائية"في ١٦ كانون ثان عام ١٩٣٧ وحتى انتقاله الى مدرسة "الشالجية الابتدائية" في الاول من تشرين اول عام ١٩٣٨،ليحصل بعدها على اجازة دراسية لاستكمال دراسته الجامعية مدة اربع سنوات، ليعود فيلتحق بـ" الإعدادية المركزية " في ١٥ ايلول من عام ١٩٤٣، ثم انتقل بعد عام ونيف الى "ثانوية التجارة" في الاول من كانون اول عام ١٩٤٤ ليدرّس فيها مادتي الاقتصاد وأحوال العراق الاجتماعية حتى الأول من تشرين أول عام ١٩٤٥، حيث قدم اجازة دراسية لاستكمال دراسته العليا في الولايات المتحدة الامريكية.

تم تعيينه تدريسياً في "كلية الآداب والعلوم" في ٣٠ تشرين اول عام ١٩٥٠، اثر حصوله على درجة الدكتوراه، وبلقب علمي "مدرس"، وكانت "علم النفس الاجتماعي" اول مادة دراسية حاضر فيها لطلاب قسم الاجتماع، وهي كما اوضح احد شهود العيان من بين اقرب المواد الدراسية الى نفسه، إذ أولاها جل اهتماماته في البحث والدرس، فقد تناغمت مع تطلعاته العلمية في سبر اغوار المجتمع العراقي، والوقوف عند خصائصه وسماته، والعوامل المؤثرة في "الفرد" و "المجتمع"، والموروثات الاجتماعية من عادات وتقاليد وقيم ومثل واثرها في سلوكيات المجتمع وتحديد نمطيته من المفردات الخاصة في تحليل المجتمع العراقي، شكلت هاجساً علمياً وبحثياً، استغرقت خمسة عقود تقريباً من حياته العلمية والاكاديمية.

قاربت مهمة تدريساته الاكاديمية في كلية الاداب، زهاء العقدين من الزمان، تتلمذ علي يديه خلالها المئات من طلبة قسم الاجتماع، وكما مبين في الجدول رقم (٣)، القسم الذي طالما رفد المجتمع بمتخصصين اجتماعيين، كان المجتمع العراقي بأمس الحاجة لخبراتهم العلمية والتربوية في مواجهة العديد من الاخفاقات السلوكية داخل المجتمع كالجريمة والانحرافات السلوكية، أو في الارشاد والتوجيه التربوي المتمثل بمهام "الباحثة او الباحث الاجتماعي"، سعياً وراء الحد ما أمكنهم سبيلاً من تلك الاخفاقات اولاً، والعمل على اعداد اجيال ومواطنين يتمتعون بصحة نفسية واجتماعية ثانياً.

نال علي الوردي لقب "استاذ مساعد" بتاريخ التاسع من شباط عام ١٩٥٣ عن تأليفه لكتابي "شخصية الفرد العراقي" و "خوارق اللاشعور" ثم اردفه بعد تسع سنوات بلقب "الاستاذية" أي في السادس من آب ١٩٦٢، ليمنح بعدها لقب "استاذ متمرس" من جامعة بغداد في السابع والعشرين من ايلول عام ١٩٧٠، عام تقاعده من التدريسات في كلية الاداب.

لم تقتصر جهوده ومهامه في كلية الاداب على التدريسات فحسب، فقد اسندت له غير مرة مهام ادارية، شغل منصب رئيس قسم الاجتماع وكالة لمرتين، تخللهما اشغاله منصب عمادة كلية الاداب بتاريخ السادس عشر من حزيران عام ١٩٦٠، ولمدة قصيرة لم تتجاوز الاسبوع الواحد، ثم اسندت له مهمة رئاسة قسم الاجتماع اصالة في الرابع عشر من تشرين اول عام ١٩٦٣، فسعى خلال مدة سنتين من ادارته للقسم ارساء الدعائم الموضوعية والعلمية والبحثية في اعداد كوادر متخصصة، تمتزج فيها معلوماتها العلمية "النظرية" مع اسس معرفتها الميدانية "العملية"، ممازجة اكد عليها في منهجه التحليلي للظواهر السلوكية والاجتماعية في المجتمع العراقي.

لم تتوقف عجلة عطائه المعرفي والعلمي بعد تقاعده، اذ سرعان ما انخرط في القاء المحاضرات العلمية في "المعهد العربي للدراسات العليا"، ملقياً سلسلة من المحاضرات الخاصة عن "شخصية الفرد العراقي" و "طبيعة المجتمع العراقي" وثالثها تعلقت باصول علم الاجتماع وابرز مدارسه العلمية، حملت عنوان "المدخل لعلم الاجتماع".

اتسمت علاقاته مع طلابه، كما وصفها بعضهم بـ"الود" و "الانفتاح على آرائهم ومد الجسور معهم"، اذ لم يبخل بجهد او يدخر تعاوناً، مضيفاً بطريقته التحليلية والنقدية مناخاً علمياً على جو المحاضرة، استحال معه الطلاب الى خلايا متناغمة ومتفاعلة مع استاذهم من جهة، وارهاصات جهودهم البحثية والقراءاتية المتخصصة من جهة اخرى، معززة مطامحهم العلمية من تجاربه الميدانية الخاصة، وان كانت على حد تعبير احدهم تفتقد الى الإحصاءات التحليلية المجدولة عن هذه الظاهرة او تلك في المجتمع العراقي.

ولعل من المفيد هنا الإشارة الى ان خصائص علاقته مع طلابه من انسجام وانفتاح علمي وحواري، استمرت حتى بعد احالته على التقاعد، فعلى سبيل المثال لا الحصر، جرت مناظرة بينه وبين اكاديمي معروف في الوسط الاكاديمي العراقي كان في الامس القريب احد طلابه، الا وهو الأستاذ مدني صالح، كانت مجلة "الف – باء البغدادية" ميداناً لها، فقد استعرض تلميذ الامس واكاديمي اليوم طروحات استاذه الوردي عن العوامل والاسباب المؤدية الى ظاهرة "الازدواجية الشخصية"، مؤكداً ان العامل الاقتصادي لا يمكن تحييده او اضعاف دوره في بروز هذه الظاهرة الاجتماعية، فرد عليه الوردي بمثال حمل عنواناً ذا مغزى عميق في دلالته "الى تلميذي مدني صالح"، بين فيه ان تناقضات القيم وصراع الجديد مع القديم اطراف اساسية في معادلة ازدواجية السلوك مع عدم اغفال العامل الاقتصادي في المعادلة، وبالطبع لم يأت جوابه خلواً من عبارات الحنو الابوي المشوبة بعاطفة الاستاذ ازاء تلميذه "النجيب والوفي" كما وصفه في المقال نفسه.

لم تستثمر امكانياته الاكاديمية العالية ومكانته العلمية المرموقة في حقل الدراسات العليا في التدريس او الاشراف، الا بحدود نادرة وقليلة للغاية، وهذا ما يلفت النظر ويثير التساؤل عن الاسباب والمبررات الحائلة بينه كطاقة علمية وقادة وبين طلبة الدراسات العليا المتخصصين في علم الاجتماع والدراسات الاجتماعية.

فلا مراء اذ نجد جهوده في حقل الاشراف ومناقشة الرسائل والاطاريح الجامعية في العراق، قد اقتصرت في الاشراف على رسالة طالبة ماجستير واحدة فقط، تعنونت بـ"الاتجاهات القيمية لطلبة جامعة بغداد دراسة ميدانية"، تم اجازتها في كانون ثان عام ١٩٧٥، عالجت فيها الباحثة ظواهر السلوك الاجتماعي لطلبة جامعة بغداد، والعوامل المؤثرة في نمطية سلوكهم كالعادات والتقاليد والأعراف، فضلاً عن المؤثرات الحضرية والفكرية، مازجت فيها الباحثة بين الأسس النظرية والبيانات الإحصائية المجدولة والمستقاة من دراستها الميدانية المباشرة مع عينات من طلبة جامعة بغداد، بلغت فيها جداولها المعلوماتية خمسة وستين جدولاً، فكانت دراسة موضوعية أشارت الدكتورة فوزية العطية رئيس لجنة المناقشة الى ان بصمات ورؤى علي الوردي كانت واضحة على منهج الرسالة.

عن رسالة (علي الوردي.. جهوده الفكرية وآراؤه الإصلاحية(

علي الوردي في حوار نادر:

الكاتب الناجح هو الذي يندمج معه القارئ أثناء القراءة

* س: علمْنا أنكَ سافرْتَ إلى (بولندا)، بناءً على دعوة تلقيتها من جامعة (وارشو)، فأرجو أنْ توضِّح لنا العلاقة بينك وبين هذه الجامعة، وما هو سبب دعوتها لكَ في هذه السنة؟.

جـ: الواقع إنَّ العلاقة بيني وبين جامعة (وارشو) قديمة تعود إلى عام ١٩٦٢م، حينَ حضرْتُ مؤتمر (ابن خلدون) الذي عُقِدَ في القاهرة، فقد كان من بين المشاركينَ في ذلك المؤتمر البروفيسور (بيلوفيسكي) رئيس القسم العربي في جامعة (وارشو)؛

وقد تعرَّفْتُ عليه في أثناء المؤتمر، وتوطَّدَتْ الصداقة بيني وبينه منذ ذلك الحين، وأذكر أنَّه زار العراق عام ١٩٧٥م، بناءً على دعوة من وزارة الإعلام العراقية، وكنتُ مرافقاً لهُ في بعض جولاته في العراق، واستطعْتُ أنْ أدخِلَه إلى داخل الحضرة المقدَّسة في المسجد الكاظمي، وكان هو قادرا على التكلم بالعربية وسمَّيته الشيخ يوسف، فلم يتعرَّض به أحد، وهو مازال يذكر تلك الحادثة ويتندَّر بها، ومن الجدير بالذكر أنَّه قام بترجمة القرآن إلى اللغة البولونية، وسوف تصدر الترجمة قريباً، إنَّه الآن يرأس القسم العربي في جامعة (وارشو)، وذلك لكبر سنِّه، حيث جعلوه رئيسا فخرياً، وحلَّ محلَّه في رئاسة القسم أحد تلاميذه، وهو: البروفيسور (دانيتسكي)، وقد زار هذا الرئيس الجديد العراق أيضا، ورافقته في بعض جولاته، وأدخلته الحضرة الكاظمية كذلك، إنَّ (دانيتسكي) يتقن العربية كأحد أبنائها، وهو محبٌّ للعرب مولع بالثقافة العربية.

وعلى أيَّة حال فإنَّ القسم العربي في جامعة وارشو كان في عهد رئيسه القديم، وما زال في عهد رئيسه الجديد متعاطفاً معي، وكثيراً ما يدعوني ويشركني في بعض أعماله الأكاديمية، ولا سيَّما لجان الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه التي تكتبُ بالعربية، وقد دعاني في هذه السنة وكان مكوثي هناك في هذه السنة أطول منه في السنوات الماضية، وذلك بسبب مشكلة حدثتْ لأحد الطلاب العرب، وهو من القطر المصري الشقيق، فقد كتب هذا الطالب أطروحة أراد بها نيل شهادة الدكتوراه، وكنتُ عضوا في لجنة الإشراف على الأطروحة، وكان لي رأيٌ معينٌ فيها يختلف عن رأي الآخرينَ من أعضاء اللجنة، ثمَّ تعقَّدَتْ المشكلة ممَّا لا مجال لشرحه في هذا المجال، وأحمد الله أنِّي استطعْتُ أنْ أخرج من تلك المشكلة بهدوء، ورجعْتُ إلى الوطن وأنا مرتاح الضمير.

* س: في أثناء غيابك عن الوطن نشرَتْ جريدة العراق ثلاث مقالات في مناقشة مقالاتك السابقة أو في انتقادها والردِّ عليها، هي بأقلام الأساتذة: مهدي شاكر العبيدي، محمد جواد الغرابي، عبد الحميد المحاري؛ فهل قرأتَ هذه المقالات؟، وما رأيُكَ فيها؟.

جـ: قرأتُ هذه المقالات بعد عودتي إلى الوطن، لأنَّ جريدة (العراق) لا تصل إلى (وارشو) مع الأسف، وإنِّي في الحقيقة أشكر هؤلاء الأخوان الفضلاء على ما كتبوا لأنَّهم لم يخرجوا في نقدهم عن نطاق ما ينبغي لهم من التزام أدب النقد والمجادلة، وإنِّي حين أقارنُ كتاباتهم بما قرأته في جرائد أخرى من نقدات شخصية وعاطفية أحمَدُ لهم موقفهم ورصانة أسلوبهم.

هناك محوران تدور حولهما مقالات هؤلاء الثلاثة، هما: كتاب (وعَّاظ السلاطين)، و (عقدة الزيَّات)؛ وإنِّي ما زلتُ عند رأيي في كتاب (وعَّاظ السلاطين)، وكذلك ما زلتُ عند رأيي في (عقدة الزيات).

إنَّ الأخ محمد جواد الغرابي يشبِّه موقفي تجاه كتاب (وعَّاظ السلاطين) بموقف (غاليلو) عندما تبرَّأ من نظريَّته في دوران الأرض خوفا من القتل في محاكم التفتيش، مع أنَّ (غاليلو) كان في قرارة نفسه واثقا من صحَّة نظريَّته، وقد جاء الأخ مهدي شاكر العبيدي بمثل هذا القول الذي جاء به الغرابي؛ وهو قولٌ لا أوافقهما عليه، أو لعلني أستغرب منه وأستنكره.

والواقع أنَّ ندمي على كتابة الكتاب ليس من جرَّاء خوف أشعر به، فليس هناك أيّ خطر أخشى منه بعد أنْ مضَتْ تلك المُدَّة الطويلة على صدور الكتاب، وأنا سليمٌ معافى والحمد لله.

إنَّ ندمي ناشئٌ في الحقيقة من كوني قد تغيَّرْتُ في كثير من آرائي ونهجي الفكريَ، وهذا أمرٌ طبيعي في البشر، لأنَّ الإنسان عند تقدُّمه في السنِّ قد يتغيَّرُ كثيرٌ من أفكاره التي كان يتبنَّاها في شبابه؛ قلتُ مرارا، وأعيدُ القول الآن: إنَّ الهزَّة الاجتماعية التي شهدها العراق في ١٤ / تموز / ١٩٥٨ م، قلبَتْ كثيرا من مفاهيمي ونظريَّتي إلى الحياة والمجتمع، فقد كنتُ قبل ذلك أنظر إلى الناس والمجتمع نظرة معيَّنة، ثمَّ شَهِدْتُ الأحداث الصاخبة التي حدَثَتْ في تموز ١٩٥٨م، وما بعده، وأدركتُ عند ذاك أنِّي مخطئ في نظريَّتي القديمة في طبيعة البشر بوجهٍ عام وطبيعة المجتمع العراقي بوجه خاص.

أترك هذا الموضوع لأنتقل إلى موضوع (عقدة الزيات)، وأقصد بها العقدة التي ابتليْتُ بها في الثلاثينيات، وابتلي بها أمثالي من الشباب في تلك الفترة، حيث كُنَّا نحاول تقليد الزيات في أسلوب الكتابة، الذي كان هو نفسه يحاول تقليد الجاحظ وأبي حيَّان التوحيدي فيه.

إنِّي في الواقع لا أبخس قيمة الجاحظ والتوحيدي، وأعتبرهما من عمالقة الأدب والفكر في عصريهما، وهنا أحبُّ أنْ أؤكِّد على تعبير (عصريهما)، وأقصد بذلك أنَّ أسلوب الجاحظ يمكن اعتباره عظيما بالنسبة إلى عصره، وكذلك أسلوب التوحيدي، ولكن هذا لا يعني أنَّنا يجب أنْ نقلِّدهما في عصرنا هذا؛ يجب أنْ لا ننسى في هذا الصدد المقولة التي أصبحَتْ بديهيَّة، وهي: إنَّ الشيءَ الذي يعتبر صالحا في زمان ما قد يفقد صلاحيَّته بمرور الزمن، وإنَّ التقدُّمي في زمانه قد يصبح رجعيا في زمانٍ تال.

إنِّي أذكر ما كنَّا فيه في الثلاثينيات من هذا القرن، عندما صدَرَتْ مجلة (الرسالة) لصاحبها أحمد حسن الزيّات، فقد أصبحَتْ هذه المجلة

للأدب الرفيع لدى الأدباء والمتأدبينَ، وراجَتْ في الأوساط الأدبية في مختلف الأقطار العربية شرقا ومغربا، وكان من علامات الأديب والمثقف حينَ ذاك أنْ يدأب على مطالعة (الرسالة)، ويجادل في المواضيع التي تثار فيها؛ ومن الأمور التي أفتخر بها أنَّ مجلة (الرسالة) نشرَتْ لي مقالتين في عام ١٩٤٢م، فكنتُ أتباهى بذلك وأتحدَّى الخصوم والحُسَّاد، وكذلك كان يفعل جميع الأدباء الناشئينَ الذينَ نشرَتْ لهم المجلة مقالة أو مقالتين، ثمَّ تغيَّرَتْ الدنيا وماتتْ مجلة (الرسالة)، وعفا عليها الزمان، وقد حاول الزيات في الخمسينيات إصدار المجلة من جديد بتأييد من الحكومة المصرية في عهد الثورة، ولكنَّ المجلة لم تستطع الصمود طويلا، فماتتْ مرَّة أخرى، وكان موتها في هذه المرَّة نهائيا، إنَّ تيَّار الزمن لا يمكن الوقوف ضِدَّه.

أستطيع أنْ أقول: إنَّ فنَّ الكتابة قد تغيَّر في عصرنا على نحو ما تغيَّر فنُّ التمثيل، فقد كان الممثل في عصر مضى يبهرج نفسه ويتصنَّع في حركاته وسكناته بغية إظهار العواطف بشكل صارخ مثير، فتراه يحرِّك يديه وعينيه وحاجبيه، وينفخ في أوداجه، ويتلاعَب بنبرة صوته، ويجعل أضلاع صدره صاعدة نازلة ليدلَّ بها على شدَّة ما انتابه من عاطفة، وكلَّما ازداد في تصنُّع ذلك ازداد المتفرِّجونَ إعجابا ووصفوه بالبراعة التمثيلية التي لا تُضاهَى، أمَّا الممثل اليوم فهو على النقيض من ذلك تماما؛ إنَّ من صفات الممثل البارع في عصرنا أنَّنا عندما ننظر إليه وهم يمثل نكاد ننسى أنَّه يمثل، فهو مندمج في دوره إلى درجة، يجعلنا نندمج معه.

إنَّ الكاتب الحديث ينبغي أنْ يكون كالممثل الحديث، فالكاتب الناجح في عصرنا هو الذي يندمج معه القارئ أثناء القراءة، ولا يكاد القارئ يبدأ بقراءة السطر الأوَّل حتى يشعر أنَّه مشدود لمتابعة القراءة، وإذا انتهى الكتاب بين يديه يشعر بالأسف ويتمنَّى أنْ يكون الكتاب أطول.

إنَّ الكتابة الحديثة فنٌّ صعبٌ جدا، فهي كالتمثيل الحديث، لا يقدر عليه إلا مَن يملك المواهب اللازمة له، ومن المؤسف أنْ نرى بعض أدبائنا لا يزالونَ يعيشونَ في نفس المناخ الفكري الذي كان يعيش فيه القدماء، فإذا كتبوا نسوا القارئ واهتمُّوا بأنفسهم، حيث يحاول كلٌ منهم أنْ يظهر نفسه للقارئ كأنَّه الأديب العظيم واللوذعي الفهيم.

* س: ما رأيُكَ فيما أورده الأستاذ عبد الحميد المحاري في مقالته التي نشرَتْ في (العراق) في 17 / 8 / 1983م، حيث دافع عن البلاغة والأسلوب البليغ واعتبرهما من التراث الذي يجب المحافظة عليه والاعتزاز به؟.

جـ: إنِّي أخالف الأستاذ المحاري في رأيه هذا، فالتراث العربي كتراث أيَّة أمة من أمم الأرض فيه الجوانب الحسنة والسيِّئة، ولا يجوز لنا ونحن نريد السير في سبيل الحضارة الحديثة أنْ نحافظ على التراث كلِّه في جميع جوانبه.

جاء الأخ المحاري في مقالته بقول أثار دهشتي، فهو إذ يدافع عن الأسلوب البليغ، ويقصد به أسلوب الجاحظ والتوحيدي والزيَّات ومَن لفَّ لفَّهم، ويقول: إنَّ هناك دعوات وحملات غادرة نشأتْ في الغرب لمقاومة هذا الأسلوب، وقام بها أناس مناهضون لتطلعات العرب للوحدة والحرية والانعتاق إلى آخره.

في رأيي إنَّ المناهضينَ لتطلُّعات العرب هم الذينَ يحرصونَ على إبقاء (الأسلوب البليغ) لدينا، فهذا الأسلوب ضارٌ بنا معرقلٌ لمسيرتنا الحضارية، ومن الأفضل لأعدائنا أنْ نبقى متمسِّكينَ بهذا الأسلوب الذي يجعلنا نعيش في عالم غير عالمنا الحقيقي.

من الأقوال المأثورة في تراثنا قولهم: (خير الكلام ما قلَّ ودلَّ)، وهذا هو ما سار عليه العرب في صدر الإسلام، وهو شبيه ما يُسمَّى اليوم: (الأسلوب التلغرافي)، حيث يحاول الكاتب أنْ يضع اللفظ على قدر المعنى، فلا يزيد أو ينقص فيه، وهو الأسلوب السائد في الحضارة الحديثة.

من المؤسف حقا أنْ نرى مدارسنا وكلياتنا ما زالتْ في الغالب تلقن طلابها نماذج من (الأسلوب البليغ) الذي يدعو إليه الأخ المحاري وأمثاله، فإذا تخرَّج الطالب أخذ ينحو في كتابته أسلوب الجاحظ والتوحيدي والزيَّات، وتراه عند ذاك يُحَلِّق في عالم (النثر الفني) كما يُحَلِّق الشعراء، ويهيم بنا في وادي الحماس والطوبائيَّات التي لا صلة لها بما نحنُ فيه من مشاكل طاحنة وأزمات، إنَّ (الأسلوب البليغ) في النثر هو كالشعر يرفع الإنسان عاليا ويجعله ينسى واقعه الراهن، وهذا من أسباب ما نحنُ فيه اليوم من وضع رديء عجيب.

* س: ليسمح لي الدكتور الوردي أنْ أتحوَّل عن الموضوع إلى موضوع آخر لا صلة له به؛ فقد قرأنا في مجلة (التضامن) التي تصدر في لندن بالعربية عدَّة مقالات بقلم الدكتور لويس عوض، حول جمال الدين الأفغاني، فهو يعتبر الأفغاني رجلا غامضا لا يخلو من صفة التجسُّس أو العمالة للدول الأجنبية، فما رأيُكَ في هذا الاتهام، لا سيَّما وأنتَ قد كتبْتَ عن الأفغاني بحثاً مطوَّلاً نشرته ملحقا في الجزء

الثالـث من كتاب (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث)؟.

جـ: إنّـي تابعْتُ قراءة هذه المقالات قبل سفري ثمّ انقطعْتُ عنهـا أثناء السفر وحاولـتُ بعد عودتي أنْ أحصـل على مـا فاتني من المقـالات، فلم أوفّق إلا جزئياً، وأتمنّى أنْ أحصل على جميع المقالات لكي أتمكّن من إبداء الرأي فيها.

وعلـى كلّ حال، فإنّ المقـالات التي قرأتها جعلتني أعتقـد بـأنّ الدكتور لويس عوض قـد تجنّى على الأفغـاني، لا شـكّ عنـدي أنّ الأفغاني قـد نال بعد موتـه مـن الشهـرة أكـثر ممّـا يستحق، ثـمّ جاء الدكتـور عوض أخيرا فنزل به أكثر ممّا يستحق، إنّ رأيـي في الأفغـاني أنّـه وسط بـين الطرفين، فقـد أخطأ الذيـنَ رفعوا مكانتـه أعلى ممّا هي في الواقـع، وكذلك إنّ الأفغاني لم يكـن جاسوسا أو عميـلا، وكذلك لم يكن رائدا جبّارا، ويمكن القول: إنّه كان ذا مواهـب عظيمة وذكاء مفرط، ثمّ حلّتْ بـه ظروف مكّنته من استثمار مواهبه وذكائه، ثمّ جـاءَتْ بعد ذلك ظروفٌ أخـرى ساعدَتْ على ذيوع اسمه وشهرته.

ذكـرْتُ مـرارا في مناسبـات سابقـة أنّ مواهـب الإنسان وحدها لا تكفـي لرفع مكانته أو إشهاره، ولا بُـدّ أنْ تأتـي ظروف تساعد تلـك المواهب على الظهور، ويجـب أنْ لا ننسى أيضا ما للمصادفات من دور بالغ في هذا المجال

درس الأفغـاني في النجـف في بدايـة حياتـه، فاستفـاد ممّـا في حلقـات النجـف مـن دراسـات فلسفيـة قديمة، لا أنكـر أنّ هناك كثيريـنَ درسوا معـه، ربّمـا كلنـا في مثـل ذكائـه أو أذكـى منـه، ولكـنّ الظـروف قـد لا تساعدهـم فبقـوا في محيطهـم المحـدود لا يعرف الناس عنهـم إلا قليلا ، أمّـا الأفغاني فقد شاء القـدر أنْ يسافر إلى الهند واحتكّ هناك ببعض معالم الحضارة الحديثة، ثمّ سافـر إلى أفغانستان وشـارك في بعض معاركها الحربيـة والسياسيـة، وكانـتْ أفغانستـان يـوم ذاك ميـدان صراع عنيف بـين بريطانيا وروسيا، ثـمّ وصل الأفغـاني أخـيراً إلى مصـر، وكان في مصر يومذاك تيّـاران متصارعان، أحدهما: ديني متزمّـتْ، والآخـر عصـري متفـرنج؛ وهنـا لعب الأفغـاني دوره إذ حـاول التوفيق بـينَ التيّارين على طريقة ابن رشد، والتفّ حوله شبّان أعجبوا به وبطريقته.

يمكـن القول على كلّ حـال: إنّ هنـاك عوامل أدّتْ إلى ذيوع شهرة الأفغاني بعد موته، هي كما يلي:

١. إنّ الشبّـان الذيـنَ التفـوا حـول الأفغـاني في مصر وصلوا بعـد إذن إلى الدرجة العليا في عالم الفكر أو السياسة: من أمثال: الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول؛ وقد أشاد هؤلاء بعبقريّة أستاذهم وجعلوه عبقريا فذا لا مثيل له.

٢. عاشـ الأفغـاني في أواخـر أيّامـه في كنـف السلطان عبد الحميد في إستانبول، ثمّ مات فيها من جـرّاء سرطان نشـأ في فكّـه، وأشاع خصوم السلطان أنّه دسّ السمّ للأفغاني وقتله، ولمّا جاء الاتحاديـونَ بعدئـذ وعزلـوا السلطـان، صـاروا يرفعـونَ مـن شأن الأفغـاني، حيـث اعتبروه من ضحايا السلطـان السابق، وبهذا أصبح الأفغاني في نظر الناس شهيدا قتله السلطـان لجرأته في قول الحق ومحاربة الاستبداد.

أستطيـع أنْ أقـول بوجـه عـام: إنّ كثـيرا مـن المشاهـير في التاريخ هم كالأفغاني قـد ساعدَتهم الظـروف علـى الشهـرة، ولـولا تلك الظـروف لما عرف التاريخ عنهم شيئا.

وأعيد الآن ما قلته في مقالتي الأولى التي نشرتها في جريـدة (العـراق) في: ٢١ / ١ / ١٩٨٢م: إنّ الإنسان في معظم الأحيان ليس إلا ريشة في مهبّ الرياح!.

• نصّ المقابلـة الفريـدة التـي أجراها مـع الدكتور علي الـوردي الصـحفي المرحـوم أحمـد شـبيب في (النافـذة الفكريـة) مـن جريدة العـراق بتاريخ ٧ / كانـون الأوّل / ١٩٨٣م.

علي الوردي العربي

د. حسن مدن

قبـل شهور توقفـت الأديبـة والكاتبة العراقيـة لطفيّة الدّليمـي في مقالـة لها نشرت في جريـدة "المدى" عند رأي للباحـث حيـدر سعيـد، يتمحـور حـول السـؤال التالي: لماذا لا يوجد نظير عراقي لطه حسين؟ وأشارت الدّليمي إلى أن البعـض قد يرى أن علي الوردي كانت لـه طروحاته التـي ترقى به ليكون مماثـلاً لطه حسين في قدرته التّأثيرية في صناعة الثقافة العراقية،

ولكـن الكاتبـة توقفـت باستفاضـة عنـد الفـروق بين تركيبتي المجتمعين المصري والعراقي، ففي حين كانت مصر دولة قوية راسخة ذات بنية مؤسساتية منذ عهد محمد علي أوائل القرن التاسع عشر استمرت مفاعيلها حتى قيام ثورة يوليو/ تموز ١٩٥٢، فإن العراق عانى مـن التمزّقـات في القـرن التاسع عشـر وحتى بواكير سنوات تأسيس المملكة العراقيّة عام ١٩٢١.

في هـذا الفـرق بـين تركيبتـي المجتمعـين العراقـي والمصـري يكمن الفرق بين علي الـوردي وطه حسين، فهنا قد لا تصح المفاضلة بينهما، بقدر ما يتعين البحث في الظـروف المجتمعيـة والثقافيـة التـي أنتجـت كلاً منهمـا، وجعلـت كلاً منهمـا ينطلق من هـذه الظروف في بلـورة رؤيتـه الفكريـة والثقافيـة لما هـو قائم في مجتمعه، ومـا السبيل للخروج من دائرة الجمود التي يقع فيها هذا المجتمع، على نحو ما فعلت الكاتبة.

قبـل أيـام تنـاول الكاتـب العراقـي علـي حسـين في مقالـه اليومـي في الجريدة ذاتها، مكانـة علي الوردي في الثقافـة العراقيـة الحديثـة، متمنيـاً أن يكون علي الـوردي شخصيـة العـراق الثقافيـة والفكريـة لعـام ٢٠٢١، وأن يتـمّ تحويـل بيتـه إلى متحـف، وأن تقدم كتبـه للأجيـال، على غرار ما فعلتـه مصر، حين وزعت وزارة الثقافـة كتب طه حسـين وجمال حمدان ورجال التنوير بأسعار زهيدة لجمهور القراء، لتقول لهم: هذا هو تاريخكم الفكري والثقافي.

محقـاً كان علي حسـين في إشارته إلى أن علي الوردي سعـى لنشـر ثقافـة مضـادة لاثنين: وعـاظ السلاطين وشيوخ الطائفيـة، ففي كتابه "وعاظ السلاطين" حذر مـن أن يؤمن الناس بأن الحل لأزمات البلد هو تحويل الشعب إلى قبائل، كل منها تبحث عن مصالحها، وكذلك في إشارته إلى أن الوردي رأى في كتابه "مهزلة العقل البشري" الذي أثار عليه وعاظ الخرافة، أن التغيير لا يتحقق إلا من خلال نقـد مفاهيم اجتماعية تعشش في الرؤوس منذ قرون.

وكما يمكن الحديث عن طه حسين العربي الذي تجاوز في فكره ونظرته الثاقبة نطاق بلده مصر، فإن بوسعنا أيضـاً أن نتحدث عن علي الوردي العربي الذي تجاوز هـو الآخـر، في الرؤية والموقف، حيـز العراق، لتصح أحكامه على مجتمعات عربية أخرى.

• عن صحيفة الخليج

شذرات من علي الوردي

سعيد الحمد

علي الوردي ظل قريبًا من البسطاء في وطنه يخالطهم يوميًا ويداعبهم بالنكات

عالم الاجتماع العراقي العربي الأشهر الدكتور علي الوردي عرفنـاه من خلال كتبـه ودراساتـه السوسيولوجيـة الدالة والمهمـة وقرأنـاه نقديًا وسـاء لنا العديد مـن لمحاته الفكرية ولنا حولها آراء لسنا في واردها هنا.

لكننـا نقـف اليـوم في شبـه استراحـة ثقافيـة إن صحـت التسمية مع شذرات ذات دلالة نحتاجها ويحتاجها كل دارس سيوسيولوجـي لمجتمعه، ويحتاجها المثقـف "الطليعي" او بـالأدق المؤدلـج ليغادر برجه ويقـترب من الناس العاديين معايشـا ومخالطـا ومصادقا لهـم، وهكذا كان علـي الوردي العالم الموسوعي الكبير.

كان يجلس على مصاطب المقاهي العراقيـة يحتسي الشاي "المخدر" مع رواد تلك المقاهي ويفتح معهم حوارًا يساجلهم ويساجلونـه، يستمـع لهم أكـثر مما يحدثهـم ويصغي بإذن عالم الاجتماع لما يقولونه ويطرحونه.

رآه يومًـا مدير الجامعة على زوايـة أحد المقاهي، فاستدعاه صبـاح اليوم التالي إلى مكتبـه بالجامعة، وقال له ما معناه: "لا يليق بك أن تجلس على المقاهي وتخالط رواده الشعبيين كما رأيتك بالأمس".

ابتسـم الوردي وقـال له "يا دكتور تلـك المقاهي هي المختبر العملـي لنظرياتنـا وأطروحاتنـا التـي نطرحها في الكتب وفي إصدارتنا، وكـم نحتاج لأن نختبرها على أرض الواقع المعاش الذي نجد بعضه في تلك المقاهي".

وفي أحـد الأيـام قال لـه مثقف معجـب بأطروحاته لمـاذا يا دكتـور تكتب بلغة وبأسلوب بسيـط وسهل، قال له الوردي: "أنـا أكتـب ليفهمني الجميـع وليس لفئة بعينهـا، أنا كاتب للجميع"، علق على ذلك مثقف آخر فقال: "علي الوردي طباخ ماهر يقدم وجبات شعبية في متناول البسطاء".

الدكتـور علي الوردي حـذر مبكرًا مـن الطائفية والاحتراب الطائفي في العـراق، اختلف معه اليساريون الذين نفوا عن العراق والمجتمع العراقي خطر الطائفية والانقسام الطائفي على اعتبار أن مصانـع النفط تجمع كل الأطياف والطوائف في طبقة واحدة هي العمال.

الـوردي اختلف معهم وذكرهـم بأن ثقافـة الجميع وخلفيته هي ثقافـة المجتمع الزراعي العراقي، وهـو مرشح في هكذا ثقافة للانقسام الطائفي.

فهل كان العـالم علـي الـوردي يتنبـئ أم كان يحلـل ويقـرأ المسكوت عنه والمضمر في ثقافة شعبية؟؟

وعلـي الـوردي لم يقـف أمـام علـم ازدواجيتـه الشخصيـة الـذي كتـب عنـه مـن منظـور وتحليـل وتفسـير اجتماعي سوسيولوجـي، ولم يسأل هل ازدواجية الشخصية ندرسها من ناحية سوسيولوجية أم من خلال علم النفس؟؟

هكـذا قال بعـض دارسي الدكتـور علي الوردي، فـرد عليهم بأن علم الاجتماع يقرأ ويفكك الظواهر من منظور اجتماعي وهـذا دوره وهـي رسالتـه وإن كان لا يُصـادر أي دور لأي تخصص علمي آخر.

علـي الـوردي امتنـع عـن الكتابـة "١٦ عامًـا" نتيجـة الظـروف والأوضـاع السياسية التي تصـادر الرأي العلمي الاجتماعـي.. والسؤال لمـاذا لم يغادر علي الـوردي العراق وهـو العـالم الكبـير ليتمتـع في الخـارج بحريـة التحليـل والتفكير.

هـذا السـؤال المتأخـر لم يجـب عنه علـي الـوردي الذي ظل قريبًـا مـن البسطـاء في وطنـه يخالطهـم يوميًـا ويداعبهم بالنـكات، كما داعب يومًا أحد القصابـين، فسأله عندك مخ؟؟

قال القصـاب: عندي كلاوي وعندي كتـف وعندي عنق، قال الوردي: أنت أكثر واحد مرتاح في العراق.

ذلـك هو علـي الوردي لا يستطيع العيـش في الغربة فهو من الناس واليهم كما قال الباحث حسين سعدون.

نعيـد اليـوم قـراءة علـي الـوردي ونختلـف مـع الكثير من تحليلاتـه وقراءاته، وهذا يـدل على حيويـة العلم وتطوره ومتغيراتـه ومن الخطأ النظـر إلى علي الـوردي "بدوغما" وجمـود "وتقديـس" أطروحاته كمـا فعل أنصـاف المثقفين الذيـن لم يعرفوا من علـم السوسيولوجيا سـوى العناوين يحفظنها دون فهم ودون وعي.

• جريدة الايام البحرينية

عراقيون من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسـين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني
من خلال قراءة QR Code:

www.almadasupplements.com

Email: info@almadapaper.net

طبعت بمطابع مؤسسة للإعلام والثقافة والفنون

علي الوردي والفلسفة

د. حسين الهنداوي

ولد الدكتور علي الوردي في الكاظمية ببغداد عام ١٩١٣. وفي عام ١٩٣١ التحق بالدراسة المسائية في الصف السادس الابتدائي ثم اكمل دراسته وأصبح معلما. وبعد اتمامه الدراسة الثانوية أرسل ضمن بعثة دراسية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت فحصل على البكالوريوس فأرسل من جديد إلى جامعة تكساس حيث نال الماجستير عام ١٩٤٨ والدكتوراه عام ١٩٥٠. وبعد عودته الى البلاد، عين في نفس العام مدرسا لعلم الاجتماع في كلية الآداب في جامعة بغداد. أحيل على التقاعد بناء على طلبه ومنحته جامعة بغداد لقب (استاذ متمرس) عام ١٩٧٠.

ساهم بشكل مباشر في انطلاق النشاط الفلسفي خلال القرن الماضي في العراق وأيضا في تطوره عبر قيامه لفترة من الزمن بالتدريس في قسم الفلسفة بجامعة بغداد لا سيما خلال السنوات الاولى من تأسيسه في ١٩٤٩. بيد ان استفادة الوردي من الفلسفة كبيرة ومعقدةهي أيضا، بل حاسمة أحيانا في اكتشاف وتنسيق مبادئ منهجه الخاص في علم الاجتماع وأيضا في بلورة مفاهيم جوهرية تخصّ اطروحاته المحورية في تحديد طبيعة الشخصية العراقية.

وعلى العموم، وكأي باحث او مفكر متخصص في دراسة أحوال المجتمعات البشرية لتكوين استنتاجات نظرية عامة، اهتمّ علي الوردي مبكرا بالفلسفة، هذا الميدان المعرفي الذي ولد علم الاجتماع فيه اصلا. بل ان اهتمامه به فاق بكثير في رأينا مثيله لدى كافة نظرائه العراقيين والعرب من علماء الاجتماع.

والوردي لم يعتنق مذهبا فكريا او فلسفيا رغم تأثره العميق والمعلن ببعض الفلاسفة العرب والمسلمين مثل المعتزلة والغزالي والمتصوفة الى جانب عبد الرحمن بن خلدون الذي أخذ عنه نظرية "صراع البداوة والحضارة"، ليطبقها بطريقته الخاصة المتأثرة ايضا بالمنهج التجريبي لفرانسيس بيكون والمنهج الوضعي لأوغست كونت. وتأثره من جهة ثانية بمنجزات علم الاجتماع الاميركي المتحرر نسبيا من المنظومات الفلسفية التقليدية والايديولوجية، ولا سيما نظرية "ازدواج الشخصية" لروبرت ماكيفر، ونظرية (التناشز الاجتماعي) لعالم الاجتماع الامريكي وليم اوغبرن، اضافة الى نظريات علماء الاجتماع الكلاسيكيين مثل اوغست كونت مؤسس علم الاجتماع التجريبي، او وليم جيمس، او غيرهم.

وعلي الوردي استفاد من الفلسفة الهيغلية أيضا، اذ يعتبر هيغل "من اعظم الفلاسفة الذين ساهموا في انشاء منطق الصيرورة الحديث"، لأنه "بنى نظريته على اساس ان التناقض اصيل في طبيعة الاشياء، وبهذا هدم جزءا كبيرا من المنطق القديم الذي قام على اساس عدم التناقض". ومن المرجح ان ضعف اهتمام الجامعات الامريكية عموما آنذاك بدراسة فلسفتي هيغل وماركس، كان السبب المباشر في منع الوردي من التعمق بدراسة مؤلفات اساسية لهما لا سيما النصوص ذات العلاقة بالديالكتيك. صحيح ان نقل مفاهيم الفلسفة حرفيا الى ميدان علم الاجتماع او الى غيره من المجالات ليس ممكنا او خلاقا بالضرورة. الا أن الديالكتيك الهيغلي يماثل الجدل الخلدوني في فلسفة التاريخ، ولا سيما في القضايا التي تمس التطور الدوري في نشوء وانهيار الدول والحضارات وفهم اسباب ظاهرة العمران البشري وديناميتها وغيرها من المحاور التي يخبرنا الوردي بأن المنظور الخلدوني كان فيها محط اعجابه. وبالفعل، فان اكتشاف الوردي لمنطق ابن خلدون هو العامل الاعظم في النقلة الكبرى التي حققها فكره اللاحق على انجاز اطروحته الجامعية، اذ منحه على الاقل منهجية جديدة عمقت اصالته التي اثراها استخدامه الواعي والعنيد لتلك المنهجية في البحث.

وواضح ان اطلاع الوردي على كتاب "فلسفة التاريخ عند ابن خلدون" لاستاذ الفلسفة العراقي محسن مهدي، والصادر بالانكليزية في عام ١٩٥٧ كان السبب المباشر في اكتشافه لجوهر منطق ابن خلدون. اذ يمتاز هذا الكتاب بكونه اول بحث من نوعه يدرس الناحية الفلسفية والمنطقية في النظرية الخلدونية حول العمران البشري، بعد ان كان الباحثون قبل محسن مهدي لا يشيرون الا الى الناحية الاجتماعية منها. والوردي يسجل تقديره الصريح لهذا الكتاب واعجابه بمحسن مهدي وموافقته على الكثير من آرائه، رغم انه يخالفه جذريا في القول بأن ابن خلدون جرى في نظريته الاجتماعية على نفس المبادئ المنطقية التي جرى عليها افلاطون وارسطو ومن تابعهما من فلاسفة الاسلام.

كل هذا وسواه يؤكد أهمية استفادة علي الوردي من الفلسفة ولا سيما من العطاء الفلسفي العراقي المعاصر الذي ساهم هو أيضا في انطلاقته الخلاقة.

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

عراقيون

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون